القسم الأول

فى اللُّغــة

obeikan.com

obeikan.com

الفصل الأول

أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْن ؟
وَلِسَانًا وَشَفَتَيْن ؟
وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ؟!

فى هذا البحث :

- خلق الله الإنسان فى أحسن تقويم .
- نعمة الكلام والبيان .
- البيان النطقى ، والبيان الخطى .
- روعة الجهاز الصوتى وإمكاناته .
- التفكير فريضة إسلامية .
- وسائل الكلام وحدوث الصوت اللغوى .
- نعمة الهواء فى نقل الكلام ومحوه .
- فتبارك الله أحسن الخالقين [١] .

---

(١) فى آخر الكتاب ملحقان لمزيد بيان فى هذا الجانب عن :
(أ) عبقرية ابن جنى والأصوات اللغوية .
(ب) علم الصوتيات فى التراث الإسلامى : أ . د/ أحمد فؤاد باشا

obeikan.com

obeikan.com

يحدثنا ابن القيم هنا عن أعضاء الكلام اللغوى ، ووظائفها .. إرسالاً واستقبالاً . ويبين حكمة الله تعالى فى خلقها فى أماكنها ، وفى الشكل الذى خلقت عليه ، والوسائل التى تعمل بها ، حتى تتم نعمة البيان النطقى ، والبيان الخطى ، ونعمة الفهم لرموز الحروف والكلمات ، وعمل الوسائل المعينة على ذلك بوجهة أكمل .

ثم بين مكانة العقل والفؤاد ونعمة التفكير ومنزلته ، وروعة الجهاز الصوتى واستعداداته وإمكاناته .

وإذا كانت قيمة الهواء عظيمة وأساسية فى حفظ الحياة ، فله أيضًا قيمة كبيرة فى نقل الأصوات اللغوية ، بل وغير اللغوية ..

وذكر كيفية حدوث الصوت اللغوى فى أعضائه ، ومراحله ونعمة محوه بعدئذ من الهواء ، كما نمحو البيان الخطى ..

وسبحان القائل : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ (١) .

والقائل : ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ * ولِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ (٢) .

يقول رحمه الله تعالى :

« خلق الله سبحانه الأذن أحسن خلقة ، وأبلغها فى حصول المقصود منها : فجعلها مجوفة كالصدفة لتجمع الصوت ، فتؤديه إلى الصماخ ، وليحس بدبيب الحيوان فيها فيبادر إلى إخراجه ، وجعل فيها غضونًا ، وتجاويف وإعوجاجات تمسك الهواء والصوت الداخل فتكسر حدته ، ثم تؤديه إلى الصماخ ..

---

(١) الإسراء : ٣٦ (٢) البلد : ٨ - ١٠

ويشير إلى حكمة الله تعالى فى أنه جعل للإنسان حاستين وعضوين كالأذنين والعينين اللتين اقتضت الحكمة تعددهما ؛ فإنه ربما أصيبت إحداهما أو عرضت لها آفة تمنعها من كمالها ، فتكون الأخرى سالمة فلا تتعطل منفعة هذا الحسن حملة .

وجعل سبحانه - فى الوجه أنفًا واحدًا ، وجعل فيه منفذين حجز بينهما حاجز يجرى مجرى تعدد العينين ، والأذنين فى المنفعة ، وهو واحد . . فتبارك الله رب العالمين ، وأحسن الخالقين [1] .

وجعل - سبحانه - فى الحلق منفذين ، أحدهما للصوت والنفس الواصل إلى الرئة ، والآخر للطعام والشراب ، وهو المرئ الواصل إلى المعدة ، وجعل بينهما حاجزًا ، يمنع عبور أحدهما فى طريق الآخر ، منعًا للهلاك لو وصل الطعام من منفذ النفس .

وجعل داخل الأذن مستويًا كهيئة الكوكب ، ليضطرد فيه الصوت حتى ينتهى إلى السمع الداخلى ، وقد انكسرت حدة الهواء فلا ينكؤه [2] .

أشار ابن القيم أن تجويف الأذن تكفل بحفظها حين تشعر بالخطر ، وأن التجاويف تمسك الهواء والصوت حتى يصل إلى الصماخ فى رفق ، وأن تكرار الأذن فيه جمال واحتياط ، وكذلك العينان ؛ خوف فقد أحدهما ، وقام منفذ الأنف مقامهما بما تركب فيه من حاجز ، وفى الحلق منفذان يحجز بينهما حاجز ، ليقوم كل منهما بما نيط من مهمات حيوية ، وبما يضمن السلامة للإنسان الذى خلقه الله فى أحسن تقويم .

* *

ويعمم فى حديثه .

ثم يخصص زيادة فى البيان ، فيذكر ما أودع الله تعالى فى الرأس - كأشرف مكان فى الإنسان - وما أودعه الله فيه من الآت تعين على استمرارية

---

(١) مفتاح دار السعادة ٢٠٧ (٢) المصدر السابق : ٢٩٢

حياته ومنافعه من جهة ، وتعين على الاختيار والتذوق لتفضيل المناسب والأليق ، ثم تؤدى بالتالى نعمة الكلام والبيان ، مع الإشارة إلى الاتصال بينها وبين بعضها فى تناسق وترابط يشير إلى قدرة الخالق المنعم ، ويذكر العبد بنعم المتفضل سبحانه .

ولأن اللسان أخطر الأعضاء من جهة وأجلها من ناحية أخرى ، وحتى فى تخصيص مكانه وستره فضلاً عن لطافته ، وحاجته إلى الرطوبة لتأدية وظيفته المزدوجة على نحو كاف وفعال . . كان فى داخل الفم لا خارجه . . ثم ما أحيط به من أسنان وشفاه . . وكانت بدايته فى أقصاه لا فى طرفه . . وكيف كان اختلاف الحناجر معجزة فى عدم تشابه الأصوات ، مما أشبه اختلاف البصمات . .

وكان اختلاف الأصوات سببًا فى حفظ الحقوق والعدل : حين أباح العلماء للأعمى الشهادة ، لأنه يميز بين الأصوات المختلفة ، فلا تستعصى عليه الشهادة . . تمكينًا للعدالة فى دنيا الإنسان . .

يقول رحمه الله - فى معرض الرد على الدهريين ، والطبيعيين ، ممن نسميهم اليوم بالماديين أو العلمانيين والملحدين - :

(الله سبحانه شق للعبد الفم فى أحسن موضع وأليقه به ، وأودع فيه من المنافع وآلات الذوق والكلام ، وآلات الطحن والقطع ما يبهر العقول عجائبه ، فأودعه اللسان الذى هو أحد آياته الدالة عليه ، وجعله ترجمانًا لملك الأعضاء (القلب) ، مبينًا ، مؤديًا عنه .

كما جعل الأذن رسولاً مؤديًا مبلغًا إليه ، فهى رسوله وبريده الذى يؤدى إليه الأخبار ، واللسان بريده ورسوله الذى يؤدى عنه ما يريد).

وعن وظيفة اللسان ، ومكانه ومكانته ، وما أحيط به للحفظ والزينة والإعانة على أداء وظيفته ، يقول :

(واقتضت حكمته سبحانه ، أن جعل هذا الرسول - اللسان - مصونًا محفوظًا مستورًا غير بارز مكشوف كالأذن والعين والأنف ؛ لأن تلك الأعضاء لما كانت تؤدى من الخارج إليه جعلت بارزة ظاهرة ، ولما كان اللسان مؤديًا منه إلى الخارج جعل له سترًا مصونًا لعدم الفائدة فى إبرازه ، لأنه لا يأخذ من الخارج إلى القلب ، وأيضًا : فلأنه لما كان أشرف الأعضاء بعد القلب ، ومنزلته منه منزلة ترجمانه ووزيره .. ضرب عليه سرادق تستره وتصونه ، وجعل ذلك السرادق كالقلب فى الصدر .

أيضًا : فإنه من ألطف الأعضاء وألينها ، وأشدها رطوبة ، وهو لا يتصرف إلا بواسطة الرطوبة المحيطه به . فلو كان بارزًا صار عرضة للحراره واليبوسة والنشف المانع له من التصرف ، ولغير ذلك من الحكم والفوائد .

* *

ثم زين سبحانه الفم بما فيه من الأسنان ، التى هى جمال له وزينة . وبها قوام العيد وغذاؤه .. متناسقة الترتيب ، كأنها الدر المنظوم .. وأحاط - سبحانه - على ذلك حائطين ، وأودعهما من المنافع والحكم ما أودعهما ، وهما الشفتان .. وجعلهما إتمامًا لمخاح حروف الكلام ونهاية له ، كما جعل أقصى الحلق بداية له ، واللسان وما جاوره وسطًا ، ولهذا كان أكثر العمل فيها له ، إذ هو الواسطة ... وخلق سبحانه الحناجر مختلفة الأشكال فى الضيق والسعة ، والخشونة والملاسة ، والصلابة واللين ، والطول والقصر ، فاختلفت بذلك الأصوات أعظم اختلاف ، ولا يكاد يشتبه صوتان إلا نادرًا ، ولهذا كان الصحيح قبول شهادة الأعمى ، لتمييزه بين الأشخاص بأصواتهم ، كما يميز البصير بينهم بصورهم ، والاشتباه العارض بين الأصوات كالاشتباه العارض بين الصور) [1] .

---

(١) المصدر السابق : ٢٨٥

ولو تأملنا براعة الإمام السكاكى [1] فى توزيع الحروف الأبجدية بين أعضاء النطق ، فى رسم لا يختلف كثيراً عن رسومات المحدثين ، بما حباهم به هذا العصر من منجزات التكنولوجيا المعاصرة ، لازداد إكبارنا لعلمائنا القدامى ، ولشعرنا بالتفوق ، بدلاً من الشعور بالدونية والإحباط ، ثم حاولنا اللحاق والتشبه بهم .

واليوم إذا كان عصر التقدم التكنولوجى - على منجزاته الهائلة - عاجزًا عن التشريح الدقيق وبيان الوظائف التفصيلية أو شبهها إلخ ، وكيفية عمله ، فلا عجب أن يشير الإمام ابن القيم إشارات مقتصدة إلى هذا الجانب يقول :

« ومن عجائب خلقه أنه جعل فى الرأس ثلاث خزائن نافذًا بعضها على بعض ، ومن أسراره ما أودعها من الذكر والفكر والتعقل [2] .

ولذا نجد بعض العلماء المعاصرين يتعرض لأعضاء النطق بالدراسة التفصيلية ما عدا (المخ) ، ويصرح بأنه لن يتعرض له بشىء من التفصيل لدقة تشريحه ، فضلاً عن أن التشريح لم يصل إليه بعد ؛ لتعرف شأنه تعرفًا تامًا » [3] .

ويجعل التفكر فى مكان يفضل العبادة ، لما ورد فى الآثار ، ولأن الفكرة مخ العقل ، وعبادة الصالحين ؛ ولذا صرف المتكبرون عن التفكر فى آيات الله : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [4] . . .

ويفرق بين التذكر والتفكر : بأن الأول يثبت فى القلب ما عرف بالتكرار ، والتفكر يكثر العلم ويستجلب ما ليس حاصلاً ، فالفكر يحصله ، والتذكر يحفظه ، ولهذا قال الحسن : (ما زال أهل العلم يغدون بالتذكر على التفكر ، وبالتفكر على التذكر ، ويناطقون القلوب حتى نطقت بالحكمة) ، فالتفكر

---

(١) فى « مفتاح العلوم » .
(٢) السابق : ٢١٠
(٣) التجويد والأصوات (٩) : للدكتور إبراهيم نجا .
(٤) الأعراف : ١٤٦

والتذكر بدار العلم ، وسقيه مطارحته ، ومذاكرته تلقيحه [1] ، حتى يقرر : أن أصل كل طاعة إنما هى الفكر ، وأصل كل معصية من جانب الفكرة حين يصادف الشيطان أرض القلب خالية فارغة ، فيذر فيها حب الأفكار الرديئة .

* *

ويلمح ابن القيم للحديث عما فى داخل الإنسان بما لا نشاهده ، كالقلب والكبد والطحال والرئة ، ويتحدث عن بعض وظائفها مستدلاً بذلك على عجائب خلق الله سبحانه : فيجعل (القلب) ملكًا يستعمل تسع آلات ، وكلها خادمة له ؛ لأنه أشرفها ، وبه قوام الحياة ، والغرائز والطباع ؛ ولذا فالعين طليعة ورائدة ، واللسان ترجمانه المؤدى للسمع ما فيه ، ومن ثم فكثيرًا ما يقرن المولى سبحانه الثلاثة ، كما فى قوله : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ [2] ، ﴿ وجعلْنا لهُم سمْعًا وأبْصارًا وأفْئدةً ﴾ [3] ، وقوله تعالى : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُون ﴾ [4] ، وبالجملة فسائر الأعضاء خدمه وجنوده ، وقال النبى ﷺ : « ألا إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ، ألا وهى القلب » .

ولله در الشاعر حيث يقول :

فسبحان من لا يقدر الخلق قدره ومن هو فوق العرش فرد موحد

* *

ويذكر الإنسان بمنافع أعضائه . . (فالعينان ، للاهتداء والجمال والزينة والملاحة ورؤية ما فى السموات والأرض وعجائبهما ، والفم للغذاء والجمال وغير ذلك . . والأنف للنفس ، وإخراج فضلات الدماغ ، وزينة للوجه ،

---

(١) مفتاح دار السعادة : ١٩٧ (٢) الإسراء : ٣٦

(٣) الأحقاف : ٢٦ (٤) البقرة : ١٧١

واللسان ، للبيان ، والترجمة عنك ، والأذنان صاحبتا الأخبار تؤديانها إليك ، واللسان يبلغ عنك . .) [1] .

ولا تزال وظيفة الأذن واللسان ، ومعرفة شيء عن تشريحهما للإلمام بشيء عن ماهيتهما ، وكيف يؤديان وظائفهما وعلاقتهما . . ما زال ذلك شغلاً شاغلاً للعلماء .

* *

● ويشير إلى حكمة الله فى جعل الحواس الخمس للإنسان فى أشرف مكان ، يقول :

(وانظر إلى الحواس التى منها تشرف على الأشياء ، كيف جعلها الله فى الرأس كالمصابيح فوق المنارة لتتمكن بها من مطالعة الأشياء ، ولم تجعل فى الأعضاء التى تمتهن كاليدين والرجلين : فتتعرض للآفات بمباشرة الأعمال والحركات . . . وحتى تتمكن من أداء رسالتها بيسر : (كان الرأس أليق موضع بها وأجملها : فالرأس صومعة الحواس) .

ثم يذكر الحكمة فى عدد الحواس ، فيقول :

(جعل الحواس خمسًا فى مقابلة المحسوسات الخمس ؟ ليلقى خمسًا بخمس.

حتى لا يبقى شيء من المحسوسات لا يناله بحاسة :

فجعل البصر فى مقابلة المبصرات ، والسمع فى مقابلة الأصوات ، والشم فى مقابلة أنواع الروائح المختلفات ، والذوق فى مقابلة الكيفيات والمذوقات واللمس فى مقابلة الملموسات ، فأى محسوس بقى بلا حاسة ؟! ولو كان فى المحسوسات شيء غير هذه لأعطاك الله سبحانه حاسة سادسة . .

● ولما كان ما عداها إنما يدرك بالباطن أعطاك الحواس الباطنة ، وهى هذه

---

(١) السابق : ٢٨٥ بتصرف .

الأخماس التى جرت عليها ألسنة العامة والخاصة ، حيث يقولون : المتفكر المتأمل ضرب أخماسه فى أسداسه : أى حواسه الخمس فى جهاته الست ، وأرادوا أنه جذبه القلب ، وساربه فى الأقطار والجهات حتى قلب حواسه الخمس فى جهاته الست . وضربها فيها لشدة فكره) [1] .

فذكر الحواس الخمس الظاهرة ، ثم أشار إلى الحواس الباطنة ، وبذلك لا يستدرك عليه .

وهذه الحواس لا تعمل إلا بوسائط وعلائق ووسائل ، تمكنها من أداء رسالتها ، لا شك فى ذلك ، يقول :

(ثم أعينت هذه الحواس بمخلوقات أخرى منفصلة عنها ، تكون واسعة فى إحساسها :

فأعينت حاسة البصر بالضياء والشعاع ، فلولاه لم ينتفع الناظر ببصره ، فلو منع الضياء والشعاع لم تنفع العين شيئًا .

وأعينت حاسة السمع بالهواء يحمل الأصوات فى الجو ، ثم يلقيها إلى الأذن فتحويه ، ثم تصله إلى القوة السامعة ولولا الهواء لم يسمع الرجل شيئًا.

وأعينت حاسة الشم بالنسيم اللطيف يحمل الرائحة ثم يؤديها إليها فتدركها، فلولا هو لم تشم شيئًا .

وأعينت حاسة الذوق بالريق المتحلل فى الفم ، تدرك القوة الذائقة به طعوم الأشياء ، ولهذا لم يكن له طعم لا حلو ولا حامض ، ولا مالح ، ولا حريف ؟ لأنه كان يحيل تلك الطعوم إلى طعمه ولا يحصل به مقصوده.

وأعينت حاسة اللمس بقوة جعلها الله فيها تدرك بها الملموسات ، ولم

---

(١) السابق : ٢٨٥

تحتج إلى شيء من خارجها ، بخلاف غيرها من الحواس ، بل تدرك الملموسات بلا واسطة بينها وبينها ؛ لأنها إنما تدركها بالاجتماع والملامسة ، فلم تحتج إلى واسطة) [1] .

فقد بين ضرورة الضياء لضرورة الإبصار ، وإلا لما تم المطلوب ، والهواء ضرورى لحمل الأصوات ، بينما النسيم العليل يمكن الشم من أداء مهمته ، وكان اللعاب فى الفم لإدراك المذوقات ، وترطيب اللسان ، بينما حاسة اللمس لها اكتفاء ذاتى حين تقوم بمهماتها . .

* *

ويقرر باحثو علم اللغة حديثًا أن أعضاء النطق فى الإنسان لم تكن خاصة بالنطق والكلام ووقفًا عليه . . بل لها منافع وميزات أخرى متعددة متنوعة ، وهذا ما أشار إليه ابن القيم حيث يقول :

(وفى هذه الآلات مآرب أخرى ومنافع سوى منفعة الكلام .

ففى الحنجرة مسلك النسيم البارد الذى يروح على الفؤاد بهذا النفس الدائم المتتابع .

وفى اللسان منفعة الذوق فتذاق به الطعوم وتدرك به لذتها ، ويميز به بينها ، فتعرف حقيقة كل واحد منها ، وفيه مع ذلك معونة على إساغة الطعام . وأن يلوكه ويقلبه حتى يسهل مسلكه فى الحلق .

* *

وفى الأسنان من المنافع ما هو معلوم ، وإسناد الشفتين ، وإمساكها عن الاسترخاء ، وتشويه الصورة .

وفى الشفتين منافع عديدة يرشف بها الشراب .

---

(١) السابق : ٢٠٩ بتصرف .

حتى يكون الداخل منه إلى حلقه بقدر ، فلا يشرق به الشارب ، ثم هما باب مغلق على الفم الذى ينتهى إليه ما يخرج من الجوف ، ومنه يبتدئ ما يلج فيه ، فهما غطاء وطابق عليه ، يفتحهما البواب متى شاء ، ويغلقهما إذا شاء ، وهما أيضًا جمال ورينة للوجه ، وفيهما منافع أخرى سوى ذلك . .

وقد بان لك أن كل واحد من هذه الأعضاء يتصرف إلى وجوه شتى من المنافع والمآرب والمصالح ، كما تتصرف الأداة الواحدة فى أعمال شتى) (١) . . . ثم يعترف بأن فى تركيب العقل ، وصيانته ، وعمله . . ما حير الألباب والعقول ، وصدق الله العظيم حيث يقول : ﴿ وَفِى الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وفى أنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾ (٢) .

● والمعاصرون من علمائنا ، ما زالوا يقولون فى مثل هذه الدراسات :

إن الجهاز الصوتى عند الإنسان بالغ حد الروعة ، لما فيه من مرونة عجيبة : فقد تهيأ للإنسان بتلك المرونة إخراج عدد لا يحصى من الأصوات . .

وإن هذا الجهاز لم يكن فى أصل خلقه لإصدار الأصوات ، وإنما كان لكل جزء مهام أخرى : كالتذوق بالنسبة للسان ، والمضغ للأسنان ، والشم للأنف ، وهكذا . . ولكن عزى إليها الكلام لأهميته (٣) .

* *

وقد لا يقدر الإنسان نعم الله عليه حق قدرها ، ولا يعرف أهميتها مع أنه إذا أصابها عطب أو تعطلت عن القيام بواجبها ، فإن شعوره بالحسرة على فقدها يتضاعف . . بل إن الشعور بالألم يضاعف الآلام أكثر مما يحسه الإنسان ، إذا تخيل أنه فاقد لحاسة من حواسه ، أو حرم من نعمتها بعد الإنعام بها .

ولذا يضع ابن القيم أمام الأنظار . . ما يعظم لدى الإنسان نعمه عليه من

---

(١) السابق : ٢٩٠ (٢) الذاريات : ٢٠ ، ٢١

(٣) التجويد والأصوات (٩) : للدكتور إبراهيم نجا .

المنعم . . ويقارن بين المصائب والعلل ، أيها أكثر ضررًا وأشد تعويقًا للإنسان . . وبخاصة فيما يتعلق بأمور الدين . . يقول :

(إن فقد البصر أشد ضررًا من فقد السمع ؛ لأنه أسلمهما دينًا ، وإذا صبر فله الجنة . . وقد كان فى الصحابة أضراء (عمىٌ) ، ولم يكن فيهم أطروش . . والمعافى من عافاه الله منهما ، ومتعه بسمعه وبصره ، وجعلهما الوارثين منه [1]) .

● والهواء حياة الأحياء ، وناقل الصوت ، ومعبر الكلام إلى السامع ، فما قيمة الهواء ؟ وما هو الهواء ؟

يقول : (الهواء) وما فيه من المصالح ، حياة الأبدان ، وتطرد الأصوات فتحملها وتؤديها كالرسول الحامل للبريد والأخبار ، وصلاح حياة الحيوان والنبات ، وحامل المطر كالراوية ، ويتفرق فى الجو حتى لا ينزل المطر جملة فيكون مهلكًا ، ويلقح الشجر والنبات حتى لا تكون عقيمًا ، وتسير السفن ، وتبرد الماء ، وتجفف المبتل ، وتضرم النار . . . ولو ركدت لأنتن العالَم ، وتلفت النفوس ، والنباتات ، واستشرى الوباء . . ولذا قال الرسول ﷺ فى الرياح : « إنها من روح الله ، تأتى بالرحمة » .

* *

● ثم ينبه على لطيفة اللطائف فى هذا الهواء ، وهى : أن الصوت : أثر يحدث عند اصطكاك الأجرام ، وليس نفس الاصطكاك ، كما قال بذلك من قال ، ولكنه موجب الاصطكاك وقرع الجسم للجسم ، أو قلعه عنده ، فسببه قرع أو قلع ، فيحدث الصوت ، فيحمله الهواء ويؤديه إلى مسامع الناس ، فينتفعون به فى حوائجهم ومعاملاتهم بالليل ، والنهار ، وتحدث الأصوات العظيمة من حركاتهم .

فلو كان أثر هذه الحركات والأصوات يبقى فى الهواء ، كما يبقى الكتب

---

(١) مفتاح دار السعادة : ٢٨٦

فى القرطاس لامتلأ العالم منه ، ولعظم الضرر به ، واشتدت مؤونته ، واحتاج الناس إلى محوه من الكلام فى الهواء ، والاستبدال به أعظم من حاجتهم إلى استبدال الكتاب المملوء كتابة ، فإن ما يلقى من الكلام فى الهواء قرطاس خفى ، يحمل الكلام بقدر ما يبلغ الحاجة ، ثم يمحى بإذن ربه ، فيعود جديدًا نقيًا لا شىء فيه ، فيحمل ما حمل كل وقت) (١) .

وهذا وصف مبسط عند المحدثين لحرف من الحروف العربية ، يتبين منه كيف يتكون ، والمراحل التى مر بها ، حتى صار حقيقة تدرك ، ومعجزة تحققت .

مثلاً (حرف التاء) : وصفه علماء الأصوات بأنه : حرف مهموس ، شديد مستفل ، منفتح ، ومصمت ، ويرجع همسه لعدم اهتزاز الأوتار الصوتية حال نطقه لانبساط فتحة المزمار ، واتساع مجرى الهواء ، كما أن شدته ترجع إلى حجزه الهواء خلفه حجزًا تامًا حال تقابل عضوى النطق ، وهما طرف اللسان ، وأصول الثنايا العليا .

وهو عند المحدثين انفجارى ، نظرًا لانطلاق الهواء بقوة حال انفصال هذين العضوين عن بعضهما .

ونظرًا لعدم ارتفاع اللسان به إلى أعلى كان مستفلاً ، ومنفتحًا ، ولما لم يعد ضمن حروف الخفة الستة (مر بنفل) كان مصمتًا .

ويتكون هذا الحرف مصاحبًا لهواء الرئتين فيمر بالقصبة الهوائية إلى أن يصل إلى الحنجرة فتنبسط فتحة المزمار ، ويبتعد الوتران الصوتيان عن بعضهما بما يسمح لمجرى الهواء بالاتساع ، مما ينجم عنه عدم الاهتزاز للأوطار الصوتية، ومن ثم عد هذا الحرف مهموسًا ، ثم يتابع الهواء سيره ، مارًا بالحلق فاللسان إلى أن يتصل طرفه بأصول الثنايا العليا اتصالاً محكمًا يمنع

---

(١) السابق : ٢٨٩

الهواء من التسرب ، ولذلك عد (شديدًا) ، وعندما ينفصل العضوان عن بعضهما ينطلق الهواء بقوة ، ولذا سمى انفجاريًا عند المحدثين ، ونظرًا لعدم ارتفاع اللسان به إلى أعلى كان (مستفلاً) ، و(منفتحًا) ، وهو مصمت لما سبق ، ونظرًا لغلبة الصفات الضعيفة عليه ، يعد من الحروف الضعيفة (١) .

* *

هذا ما قرره العلم الحديث لحدوث الصوت . . فما هو تصور ابن القيم فى هذا الجانب ؟ علمًا بأن هذه المعلومات من ابن القيم مر عليها قرابة الستة قرون :

يتصور حدوث الصوت اللغوى على النحو التالى ، (. . ثم تأمل فى هذا الصوت الخارج من الحلق ، وتهيئة آلاته ، والكلام وانتظامه ، والحروف ومخارجها ، وأدواتها ومقاطعها وأجراسها . . . تجد الحكمة الباهرة فى هواء ساذج يخرج من الجوف فيستهلك فى أنبوبة الحنجرة حتى ينتهى إلى الحلق واللسان والشفتين والأسنان ، فيحدث له هناك مقاطع ، ونهايات ، وأجراس ، يسمع له عند كل مقطع ونهاية بين منفصل عن الآخر ، يحدث بسببه الحرف .

فهو صوت واحد ساذج يجرى فى قصبة واحدة ، حتى ينتهى إلى مقاطع وحدود تسمع له منها تسعة وعشرين حرفًا ، يدور عليها الكلام كله : أمره ونهيه ، وخبره واستخباره ، ونظمه ونثره ، وخطبه ، ومواعظه وفضوله . . . ومنه الكلمة التى لا يلقى لها بالاً صاحبها يهوى بها فى النار . . والكلمة التى يرضى عنها الله ، صاحبها يركض بها فى أعلى الجنان ، فى جوار رب العالمين، فسبحان من أنشأ ذلك كله من هواء ساذج ، يخرج من الصدر لا يدرى ما يراد به ، ولا أين ينتهى ، ولا أين مستقره .

هذا إلى ما فى ذلك من اختلاف الألسنة واللغات ، التى لا يحصيها إلا الله

---

(١) التجويد والأصوات ص ٥٠ : د . إبراهيم محمد نجا .

. . واللسان الذى هو الجارحة واحد فى الشكل والمنظر ، وكذلك الحلق والأضراس والشفتان ، والكلام مختلف متفاوت أعظم تفاوت)[1] . . . . » .

* *

وعن تركيب آلات الكلام وعملها ، ومخارج الحروف وصفاتها ، وأثر ما يعتريها من خلل . . يحدثنا بما لا يبعد عن الذى قرره علماء الأصوات حديثًا ، يقول :

(فانظر الآن فى الحنجرة ، كيف هى كالأنبوب لخروج الصوت ، واللسان والشفتان والأسنان لصياغة الحروف والنغمات . ألا ترى أن من سقطت أسنانه لم يقم الحروف التى تخرج منها ومن اللسان . ومن سقطت شفته كيف لم يقم اللام والراء ، ومن عرضت له آفة فى حلقه كيف لم يتمكن من الحروف الحلقية)[2] .

وقد شبه أصحاب التشريح مخرج الصوت بالمزمار ، والرئة بالرق الذى ينفخ فيه من تحته ليدخل الريح فيه ، والفضلات التى تقبض على الرئة ؛ ليخرج الصوت من الحنجرة بالأكف التى تقبض على الرق ، حتى يخرج الهواء فى القصبة والشفتين والأسنان ، التى تصوغ الصوت حروفًا ونغمًا بالأصابع التى تختلف على المزمار ، فتصوغه ألحانًا ، والمقاطع التى ينتهى إليها الصوت بالأبخاش التى فى القصبة ، حتى قيل : إن المزمار إنما اتخذ على مثل ذلك من الإنسان .

فإذا تعجبت من الصناعة التى تعملها أكف الناس ، حتى تخرج منه تلك الأصوات ، فما أحراك بطول التعجب من الصناعة الإلهية ، التى أخرجت

---

(١) مفتاح دار السعادة : ٤٩٠

(٢) الحروف الحلقية التى تخرج من الحلق ستة ، نظمها بعضهم فى هذا البيت :

همز ، فهاء ، ثم عين حاء مهملتـان ، ثم غين خاء

تلك الحروف والأصوات من اللحم والدم ، والعروق والعظام ! ويا بعد ما بينهما ! .

ولكن المألوف المعتاد لا يقع عند النفوس موقع التعجب ، فإذا رأت ما لا نسبة له إليه أصلاً إلا أنه غريب عندها تلقته بالتعجب وتسبيح الربّ تعالى ، وعندها من آياته العجيبة ما هو أعظم من ذلك ، مما لا يدركه القياس .

ثم تأمل اختلاف هذه النغمات وتباين هذه الأصوات مع تشابه الحناجر والحلوق والألسنة والشفاه والأسنان !! فمن الذى ميز بينها أتم تمييز مع تشابه محالها ، سوى الخلاق العليم ؟ (١) .

ومن الحروف تتألف الكلمات ، ومن الكلمات تعبير وبيان لمن رق طبعه ، ولطف حسه ، ومن البيان سرور وروعة .

* *

وعن نعمة البيان وأقسامه ، ومراتب الوجود ، ومدح من انتفع بذلك ، وذم سواه : يحدثنا ابن القيم فيقول :

(ثم تأمل نعمة الله على الإنسان بالبيانين : البيان النطقى ، والبيان الخطى، وقد اعتد بها سبحانه فى جملة ما اعتد به من نعمه على العبد ، فى قوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (٢) ، فقد تضمنت الآيات على إيجازها مراتب الخلق والوجود :

من ذكر عموم الخلق ، وهو إعطاء الوجود الخارجى .

ثم ذكر ثانيًا خصوص خلق الإنسان .

ثم ذكر ثالثًا : التعليم بالقلم الذى هو من أعظم نعمه على عباده ، إذ به خلود العلوم ، وثبات الحقوق ، وتعلم الوصايا ، والحفظ والضبط . . . إلخ .

---

(١) المصدر السابق : ٣٠٠ (٢) العلق : ١ - ٥

(فالله) أعطى (الإنسان) **الذهن** الذى يعى به ، و **اللسان** الذى يترجم به، **والبنان** الذى يخط به ، وهيأ ذهنه لقبول هذا التعليم دون سائر الحيوانات!!

والتعليم بالقلم يستلزم مراتب الوجود الثلاثة ، والتى هى مسندة إليه سبحانه خلقًا وتعليمًا ، وهى :

مرتبة الوجود الذهنى ، والوجود اللفظى ، والوجود الرسمى . . فمن فضله وكرمه ذكر تعليمين : خاصًا ، وعامًا ، وكذلك خلقين عامًا وخاصًا . . .

* *

وكذلك المتأمل فى قوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ القُرْآن * خَلَقَ الإنْسَان * عَلَّمَهُ البَيَانَ ﴾ ، يرى أنه سبحانه أعطى مراتب الوجود بأسرها .

الإيجاد الخارجى فى خلق الإنسان ، والوجود العلمى الذهنى فى تعليم القرآن . وتعليم البيان يتناول البيان الذهنى ، الذى يميز فيه المعلومات ، والبيان اللفظى الذى يعبر عن المعلومات ويترجمها .

والبيان الرسمى الخطى ، الذى ترسم به تلك الألفاظ فتبين معانيها للناظر إليها . فهذا بيان للعين ، والثانى بيان للسمع ، والأول بيان للقلب .

ولذا جمع سبحانه بين الثلاثة فى مثل قوله تعالى :

﴿ إنَّ السَّمْعَ وَالْبَصرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنهُ مَسْئُولاً ﴾ (١) ، وقوله سبحانه :

﴿ وَاللهُ أخْرجكُم مّنْ بُطُون أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجعل لَكُمُ السَّمْع والأبْصَار وَالأفْئدةَ لَعلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٢) .

---

(١) الإسراء : ٣٦ (٢) النحل : ٧٨

ويذم من عدم الانتفاع بها فى اكتساب الهدى ، والعلم النافع ، كقوله تعالى : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ (١) ، وقوله تعالى :

﴿ خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ، وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾ (٢) .

وهذا يوضح فى بيان ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - فى عبارة وجيزة (٣) :

« بأن لكل شىء أربعة وجودات :

وجود خارجى ، هو : الوجود فى الأعيان .

ووجود علمى ، هو : الوجود فى الأذهان .

ووجود لفظى ، هو : الوجود فى النطق واللسان .

ووجود رسمى ، وهو الوجود فى الخط بالبنان ، ولكون تعليم الخط يستلزم غالبًا تعليم العبارة واللفظ المستلزم لتعليم العلم ، قال تعالى :

﴿ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ ، فقد أطلق التعليم ، ثم خص فقال سبحانه : ﴿ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (٤) .

وبعد فإن للعرب والمسلمين فضلاً كبيرًا فى هذه المباحث الطبيعية ، انتفعت بها أوروبا إبان نهضتها ، ومن هنا ندرك أن الأجداد لم يقصروا فى حق الأبناء ، ولا فى تأدية رسالتهم ، وبقى دور الأبناء والأحفاد .

* * *

---

(١) البقرة : ١٨ (٢) البقرة : ٧

(٣) فى كتابه : (مذهب السَّلَفَ القويم ، فى تحقيق مسألة كلام الله القديم) .

(٤) العلق : ٥